﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ [الحجر: 79]

لمّا وصفهم بالظّلم ذكر ما ترتّب على ظلمِهم فجاء بهذه الآية للبيان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: أصلُ (نقم): يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[1]، فيُقال: نَقِمتُ عليه، أَنْقِمُ: إذا أنكَرْتَ عليه فِعْلَهُ إمّا بِاللِّسانِ، وإمّا بالعُقوبَةِ، أو عاتَبْتَهُ عليه[2]، ومِن ذلك: النِّقْمَةُ مِن العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فعاقَبَهُ، والنِّقْمَةُ أيضًا: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَديدَةً، يُقال: نَقِمتُ الأمرَ، ونَقِمتُه: إذا بالَغْتَ في كَراهَتِه[3]، والنِّقمة أيضًا: المُكافَأةُ بالعُقوبَةِ، يُقال: انْتَقَمَ اللّهُ منه: إذا عاقَبَهُ[4]، والمقصود بالانْتِقامِ في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلم عاقبته وخيمة، ونهايته إلى خسار، والدّليل ما بقي من آثار

يقول الحقُّ سبحانه: فانتقَمنا مِن أصحابِ الأيكَةِ الظّالمِينَ، فأهلَكْناهم، والانتقام ليس هنا: التَّشفي مِنَ الجاني والأخذ بغير حقٍّ، بل معناها معناه إنزال العقوبة عقوبة مماثلة لما ارتكبه؛ ولأنَّه كان ظلمًا متواليًا، واعتداءً مُستمرًا، فكان العِقاب مماثلًا له، وشفاءً لغيظ مَن جنى عليهم، وإنَّ كُلًّا مِن ديارِ قَومِ لوطٍ وديارِ أصحابِ الأيكةِ لعلى طريقٍ واضِحة تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها مَن يمرُّ عليها[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نقم).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4103.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

لمّا كانت الفاء للتّرتيب والتّعقيب أفادت أنَّ اتّصافَهم بصفة الظّلم كان سببًا في الانتقام منهم، وأنَّه تعالى عاجلَهم بالانتقام.

الظّلمُ سببٌ للعقاب، وطريقٌ مُفضٍ للعذاب

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ دون (عذّبنا) أو (عاقبنا):

لمّا كان أصحابُ الأيكة في نعمةٍ عظيمةٍ، وكانوا قد قابلوا نعمة اللّه بالظّلم والتّكذيب، وكان تركيب (انتقم منه) مضمّنًا معنى الإنكارِ على سوء الفعلِ مع اقترانِه بالعقاب، فيقال: انتقم منه إذا عاقبه بجنايته، فأفاد التّعبير بـ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ بيانَ جزاء ظلمِهم بكفرانِهم نعمة اللّه ومقابلتها بتكذيب رسولِ اللّه شعيبٍ عليه السلام؛ لأنَّ الانتقامَ يكون جزاء على كفران النِّعمة، ولم يذكر اللّه تعالى بمَ كان الانتقام، وبأيِّ نوعٍ منَ العقاب، مع أنَّه لا يسمَّى انتقامًا إلّا بالعقاب؛ لأنَّ السورة بُنيت على الإيجاز كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ، ولأنَّه ليس المقصود معرفة نوعِ العقابِ، بل المرادُ الإنكارُ عليهم وعلى أفعالِهم، وبيانُ أنَّ سببَ الانتقامِ هو ظلمُهم وكفرانُهم النِّعمَ[1].

الانتقامُ يكون جزاءً على كفرانِ النِّعمةِ

بلاغة التّعريض في جملة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾:

لمّا جعل اللّه تعالى الانتقام مرتّبًا على الظّلم كان تعريضًا بالظّالمين من قريش على سبيل الوعيد لهم، وتنبيهًا لِكلِّ ظالم بأنَّه تعالى ينتقم لأوليائِه من أعدائه جزاء ظلمِهم كما انتقم من أولئك، ففيه إشعارٌ بأنَّ من عادة اللّه تعالى الانتقامَ منَ الظّالمين.

تنبيهُ الظّالمينَ، بأنَّ الله تعالى، ينتقم لأوليائِه من أعدائِه

نكتةُ التّعبير بضمير العظمة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

أفاد التّعبير بضمير العظمة تفخيمَ الانتقام وتعظيمَه، وأنَّه ليس كأيِّ انتقام، فهو انتقام الملك الواحدِ الأحدِ.

انتقامُ الله تعالى، ليس كأيِّ انتقامٍ، بل هو خسار الدّارين

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 47، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نقم).

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾:

دلالة (من) على ابتداء الغاية وانتهائها معًا

قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ يشير إلى شدَّة الانتقام من هؤلاء، وكأنَّ المعنى فصَبَبْنا عليهم انتقامنا صبًّا، حتَّى إنَّه ليُخَيَّل إليك أنَّ بداية الانتقام منهم، ونهايته أيضًا تكون منهم، فمعنى (مِن) ابتداء الغاية وانتهاؤها، وقد قال أبو حيان: "وَقَدْ أَثْبَتَ أَصْحابُنا في مَعاني (مِنْ) أَنَّها تَكونُ لِابْتِداءِ الغايَةِ وانْتِهائِها في فِعْلٍ واحِدٍ، وأَنَّ الشَّيْءَ الواحِدَ يَكونُ مَحَلًّا لَهُما، وتَأَوَّلوا ذَلِكَ عَلَى سِيبَوَيْهِ وقالوا مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: أَخَذْتُ الدِّرْهَمَ مِنْ زَيْدٍ، فزَيْدٌ مَحَلٌّ لِابْتِداءِ الأَخْذِ مِنْهُ وانْتِهائِه مَعًا[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

إذا وقع انتقام الله من الظّالمين، فلا يفلت منه أحدٌ

يعود الضّمير على أصحاب الأيكة بما اتَّصفوا به، أي: فانتقمنا من أصحابِ الأيكة الظّالمين، ليفيدَ أنَّ الانتقامَ والإهلاكَ استغرقَهم جميعًا.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

انتقام الله متنوّع فمنه انتقام الاستئصال والإهلاكِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، لمّا كانت الواو هنا حاليَّةً أفاد الكلام اقترانَ كونهما بإمام مبينٍ بانتقام الله تعالى من أصحابِ الأيكة، ليشعرَ أنَّ الانتقام انتقامُ استئصالٍ وإهلاكٍ في حالِ بقاء آثارِهم الدالَّة عليهم.

غرض تتابعِ التّوكيد في سياق الآية:

تتابع المؤكِّدات، يدفعُ إنكارَ المنكرين

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، لمّا كان المكذِّبون من قريشٍ وغيرِهم لم ينتفعوا برؤيةِ آثار القومِ المهلَكين فكأنَّهم كانوا منكرين لكونِها في طريقٍ واضحٍ بيّن، لأنَّ الغرضَ من رؤيتِها لم يتحقَّق، فكانوا بمنزلة المنكرين فجاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريِّ مؤكَّدًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/511.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، لتقريرِ المعنى في نفوس المكذّبين، وليطمئنَّ المؤمنون إلى عدلِ الله وعنايتِه بأهلِ الإيمانِ.

مرجع ضمير التّثنية، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

تنوّع عود الضّمير، بيانٌ لسعةِ بلاغة القرآن

يحتمل عودُ الضَّمير على مدينة لوطٍ والأيكة، ويكون إدخالُ مدينة لوطٍ هنا تأكيدًا لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، للحثِّ على زيادةِ الاعتبار بما وقع للقوم المنحرفين المجرمين، ويؤيده مجيء قصّة أصحاب الأيكة عقب قصّة قوم لوطٍ، ويحتمل أن يكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بأنْ يكون الضَّمير عائدًا على الأيكة ومدين، لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يقال: (وإنَّها) لذكر الأيكة دونَ مدين، فعدل إلى ضمير التّثنيَة؛ لأنَّه ﷺ كان مبعوثًا إليهما، فكان ذكرُ أحدهما وهو الأيكة منبِّهًا على الآخر، لاشتراكهما في التّكذيب والعذاب، أو يقال: إنَّ ضَميرَ التَّثْنِيَةِ عائِدٌ عَلَى أَصْحابِ الأَيْكَةِ بِاعْتِبارِ أَنَّهُم قَبيلَتانِ، وهُما مَدْيَنُ وسُكّانُ الغَيْضَةِ الأَصْليّونَ الَّذينَ نَزَلَ مَدْيَنُ بِجوارِهِم، فاللفظ مفرد ومعناه مثنًّى، فعاد الضّمير على المعنى تنبيهًا إلى أنّهما قبيلتان[1].

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الآثار شاهدة في الجيل الأخير، على ما لاقاه السّابقون من مصير

الباء هنا للإلصاق، للإيذانِ بأنَّ هاتين المدينتين الملتصقتين بطريق واضح بيّن، فمَن يمرُّ بهما يراهما، فكأنَّه يقول: فلمَ لم تعتبروا بما حصلَ للمكذّبين؟!

بلاغة الكناية، في سياق الآية الكريمة:

بقاء آثار العذاب، طريق للاعتبار بها، لا للغفلةِ عنها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وفيه لمّا كانت المدينتان ملتصقتين بطريق مسلوكٍ مقصودٍ للمارَّة بيِّنٍ واضحٍ دلَّ بلازمِه على أنَّ المارَّة يرون المدينتين المهلكتين، لينتقَل بهذا المعنى إلى لازمٍ آخرَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، وابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/72.

هو المقصد الأسمى، وهو تنبيهُ المخاطبين إلى الاعتبار بآثار الانتقام منَ القومِ الظّالمين، أي: فكيف يغفلون عن نزول العقاب عليهم إن فعلوا مثلما فعل الظّالمون، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتعدّد اللّوازم.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الاعتبار بآثارِ القومِ الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد

لمّا كان الإمام هو ما يُهتدى به للوصول إلى المقصود، وصف الطّريق الذي تقع فيه المدينتان بالإمام للإيذانِ بأنَّه طريقٌ يقصد ويتّبَع، فقد سمّي الطريق إمامًا لأنَّ المسافر يَأتَمُّ به حتى يصير إلى الموضع الذي يريد[1]، والغرض من تسمية الطّريق إمامًا تنبيه السّامعين إلى أنَّ الاعتبار بآثارِ الانتقام منَ القوم الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المراد من إمامٍ مبينٍ الكتاب، أي: اللّوح المحفوظ، بمعنى أنَّ تقدير العقاب عليهم مكتوب في اللّوح المحفوظ[2].

بلاغة الكناية في قوله ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾:

آثار عذاب الظّالمين، نعمةٌ للمعتبرين، ونقمةٌ على الغافلين

في التّعبير بقوله ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ كنايةٌ عن كونِ الطّريق الموصل إلى هاتين المدينتين مقيمًا ثابتًا في مكانه لم تندرس أعلامه، ولم تنطمس آثاره، فهو طريقٌ يأتمّه المارَّة ويقصده النّاس، فكأنَّ بقاءه نعمة للمعتبرين ونقمةٌ على الغافلين.

بلاغةُ المجاز في قوله ﴿مُّبِينٍ﴾:

آثار الظّالمين دليلٌ على آثار قدرة الله، وانتصاره لأنبيائِه وأوليائِه

جاء ﴿مُّبِينٍ﴾ صفةً لـ﴿لَبِإِمَامٍ﴾، ولمّا كان لفظُ ﴿مُّبِينٍ﴾ اسمَ فاعل أفاد أنَّ الطّريق مبينٌ لغيره، ولمّا كانَ الطريقُ لا يبينُ بل يستبينه المارون منه كان اسمُ الفاعل على معنى اسم المفعول، وعُبِّرَ بالفاعل عن المفعول مبالغةً في شدَّة وضوحه، وللإشعار بأنَّه موضِّحٌ لآثار

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/458، والواحدي، التفسير البسيط: 12/642.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/491.

قدرة اللّه وعظيم عقابِه وانتصارِه لأنبيائِه وأوليائِه، وبأنَّه يهدي إلى المقصدِ، أي: الاعتبار بالآثار الباقية[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقاب والانتقام:

العقابُ نقيضُ الثَّوابِ، والانتقامُ نقيضُ الإنعامِ

الفرق بينهما هو أنَّ الانتقام يأتي بمعنى المكافأة بالعقوبةِ على ما صنعَ من كفرانِ النّعمة، فكأنَّ المنتقمَ لم يجدْ شيئًا يجزي به سوى العقوبة بالعذابِ والإهلاكِ وسلبِ النّعمة التي كفرَ بها لما يستحقّه بسوء فعلِه، مع ظهور الإنكار على الفعلِ، وأمّا العِقابُ فهو جَزاء على الجُرم بِالعَذابِ ويلزمه الإنكار؛ لأنَّ العقاب نقيض الثَّواب والانتقامَ نقيض الإنعام[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبقاعي، نظم الدرر: 8/43.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نقم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.